(التعريف والنقد)
مع المفكِّر أبي حيان التوحيدي
و الرِّسالة البغدادية

عبد القادر زمامة

نحن الآن أمام كتاب غريب في بابه. يستردُّ نسبتَه إلى مؤلفه الحقيقي بعد أكثر من تسعين سنة مرت على طبعه. ونشره في ساحة الدّرس. والبحث بين الدَّارسين. والمؤلفين. في تاريخ الأدب العربيّ.....!!

ولَعلَّني مازلتُ أذكر مالَقيتُهُ مع زملاء الدِّراسة والبحث في العلوم الإنسانية من مصاعبَ ومتاعبَ. في البحث عن كتاب طُبعَ في ألمانيا. وكنَّا مهتمين بمضمونه: الحضاري والأدبي. لأننا سمعنا من أستاذنا ـ رحمه الله ـ أنه كتاب يصوّر حياة الحضارة. والثقافة. كما يصوِّر العاداتِ الاجتماعية في محاسنها. ومباذلها. وصلاحها. وفسادها. وجدها. وهزلها. ويضم طائفة من الكلمات. والاصطلاحات الحضارية والتعابير والأمثال. التي كانت مُستعملة بين الناس في مدينة السَّلام: بغداد. عاصمة العباسيين... في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ..!

وكم كنا نقدّر تلك المعلومات الأدبية. والحضارية التي كان أساتذتنا يحيلوننا عليها في كتاب: د. زكيّ مبارك. المسمى: «النَّثْرُ الفنيّ في القَرن الرَّابع الهجريّ» والتي قدّمها المؤلف في كتابه المذكور. ضمن الفصول التي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خصَّصها لكتَّاب الأخبار والأقاصيص ..! وهم كثيرون....

والأمرُ يتعلّق بكتاب يُسمَّى إِذْ ذَاكَ: «حكايةُ أبي القاسم البغداديّ» تأليف أبي المطهَّر الأزديّ. محمد بن أحمد ....! وقد عثر عليه وحقَّقه وقدَّم له مستشرق ألماني هو (Adam Mez) وطُبع في هيدلبرج سنة ١٩٠٢م ، ولم نظفر إذ ذاك بهذا الكتاب ...! حتى مرَّتْ شهورٌ وأعوامٌ ...! ! من التنقيب عنه في المكاتب ... ! والخزائن...!

ومؤلف كتاب (النَّثر الفنيّ في القرن الرابع الهجريّ) قرأ هذا الكتاب المسمَّى: حكاية أبي القاسم البغدادي. ودرَس مافيه من طرائفَ ونُكت، وأبيات، ومقطَّعات وقصائدَ، وألفاظٍ حضارية، وتعابير بيانية، تشمل الماديات، والمعنويات... وفيها كان يَعْثُرُ على كلماتٍ فصيحة .. وأخرى سُوقية، أو فارسية، يستعملها العامة والخاصّة، للتعبير عما كان المجتمع البغدادي – أو جانبٌ منه – يتخبط فيه من متناقضات في الأخلاق والعادات.. صلاحاً وفساداً واستقامة وانحرافاً، وجداً وهزلاً...! وحقيقةً وخيالاً...!

ثم كتب بعد ذلك خُلاصة نَقْده ودراسته واستنتاجاته، وشغل ذلك من كتابه: أربعَ عشرةَ صَفحةً..!. قرأناها وفحصناها عِدَّةَ مرَّاتٍ ، لأنها كانت من صميم الموضوع الذي نهتم به حضارياً وأدبياً.. وتاريخياً

واهتماماتُ مؤلف النَّثر الفني شملت الشكل والمضمون.... كما أنها شملت الاستقراء والتتبع. لما يزخر به النصُّ من معلومات ودَلالات، وأبْعَادٍ ، وطرائفَ ومُبْتَذلاتٍ...!!!

ومعلومٌ أن كتاب زكي مبارك كان في أصله أطروحةً جامعية نال بها صاحبها لقباً جامعياً ممتازاً ، كان يفخر به على منافسيه...!!

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذَنْ فلا نحتاج هنا إلى عرض ما سبق للمؤلف أن قدَّمه من معلومات واستنتاجات تتعلق بشكل ومضمون وقيمة كتاب: «حكاية أبي القاسم البغدادي».. الذي نتحدثُ عنه الآن....

وإنما نكتفي هنا بما قاله عن مؤلف هذه «الحكاية...!!» في هذه السطور، وسجَّله في كتاب: (النَّثر الفني في القرن الرابع الهجري...!) للتَّعريف به...! فيقول:

«... أبو المُطَهَّر الأزدي. محمد بن أحمد ، هو رجل يُذْكَر قليلاً جداً في المجموعات الأدبية، ولم نستطع الوصول إلى معرفة أخباره. في كُتُب التراجم..! ولكن المسيوه (Metz) هَدَانا في المقدمة الألمانية التي صَدَّر بها طبعتّه لهذه الحكاية...! إلى أن الأزديّ كان يعيش في صميم القرن الرابع ....!!!».

وتخطَّى د. زكي مبارك. ذلك ليستشهد بنصوص عدّة من الكتاب، على أن المؤلف كان محتكاً بالحياة الاجتماعية في بغداد خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، وأنَّه عرِف الشيء الكثير، عن حياة الملذَّات والشَهوات ومجالس اللّهو.. ومجامع الطرب، والغناء، وأعلام الشعراء المشهورين بالعَبَث والمُجون في ذلك العصر...! ومظاهر الحضارة المتنوعة عند البغداديين ...!

وأساتذتنا إذْ ذَاكَ الذين كانوا يسهرون على دراستنا لفنون النثر والشعر ويقربوننا من مصادر الأدب والنقد والحضارة ... كانوا على بصيرة ووعي كامل حينما أرشدونا إلى كتاب: النَّثر الفنيّ في القرن الرابع ودراسة فصوله؛ لأن مؤلفه في نظرهم جعل فصول كتابه مرآةً لجوانب من حياة الثقافة والأدب، والعصر وحضارته المتنوعة ...!

ويؤكدون علينا في دراسة الفصل الذي حلَّل فيه: قصة أبي القاسم البغدادي ... فهي قصة ،أو حكاية، أو كتاب ، أو ماشاء أن يُسمِيَهُ الباحثون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والدارسون ، غريبُ الشكل والمضمون ، قد تستَّر مؤلفُه وراء اسم غامض. خامل، مجهول، لحاجة في نفسه، لاتخفى ...!!! إلى هنا ونحنُ نتحدث عما كنا نُعانيه وكنا نتصوره من أهمية لكتاب: (حكاية أبي القاسم البغدادي...!) تأليف أبي المطهَّرالأزدي ...!!!

بعد ذلك يمكننا أن نتحدث عما جَّد في هذا الموضوع بحكم أننا في الدِّراسات نربط الحلقاتِ، ونوسِّع المجالات ونثير الاهتمامات، لمتابعة البحث والدرس في شأن تُراث فيه: الرخيصُ والثمينُ. والفذُّ والسمين ... شأنه في ذلك شأن مُعطيات عُصُور وبصمات ثقافات، وحضارات دخلت في ضباب التاريخ ...!! وذلك أنه لفَتَ نَظري عنوانُ كتاب جديد وَصَلني مع كتب أُخرى يحمل في غلافه مايأتي:

ـ الرسالة البغدادية: تأليف أبي حيان عليّ بن محمد التوحيديّ المتوفى سنة ٤١٤هـ تحقيق: عَبُّود الشَّالجيِّ ...!!

كما أنه يحمل في باطن غلافه هذه المعلومات:

التي كتبها ناشروا هذا الكتاب...

ـ حقوق الطبع محفوظة لمنشورات (الجَمَل) الطبعة الأولى. كُولُنْيَا ألمانيا سنة ١٩٩٧م ...!!

وقد أغراني العنوانُ وما إليه من معلومات بقراءة الكتاب، ومتابعة فصوله فصلاً فصلاً ؛ فوجدتُ ذاكرتي ترجع بي إلى كِتَابَيْنِ عرفتُهما ودرستُهما منذ سَنَوات!!!

ـ حكاية أبي القاسم البغدادي تأليف أبي المطهَّر الأزديّ...!

ـ وكتاب النَّثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك ...!

والكتابُ الجديدُ في حُلة أنيقة، وطبع جيّد ... وصفحاتُه تبلغُ ٦٦٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صفحة ، وفهارسُه متنوعة، ومستوعبة ومفيدة.، وفي صدره نجد مقدمةً جيدة المعنى والمبنى ، وترجمةً تحليليةً مستوعِبَة لحياة أبي حيان التوحيدي ومراحلها ...!

والمحقِّقُ عَبُّود الشالجي مطلعٌ خبير بشؤون بغداد، حاضرها وماضيها وحضارتها ولهجة أهلها وعاداتهم وما تزخر به حياتهم من مُلابسات في الجد والهزل والتفاؤل والتشاؤم. وبذلك أمكنه الربطُ في تعليقاته وتخريجاته وتفسيراته بينَ ماجاء في الكتاب من إضافاتٍ وتعبيراتٍ غامضة ؛ وبين ماهو معروف عنده مما يجري بين الناس من كلمات وإشارات؛ ومصطلحات شعبية مستعملة إلى الآن ..!! وهي من رواسب الماضي الحضاري لهذه المدينة ، والحياة الاجتماعية التي مرت بها ...!

ومحقّق (الرسالة البغدادية) التي بين أيدينا الآن محقق شهير تعرف له:

ـ تحقيقه لكتَاب: الفَرَج بعدَ الشدّة ...

ـ وتحقيقه لكتاب: نشوار المحاضرة ...

وهما معاً من تأليف القاضي الأديب الشهير أبي علي المُحَسِّن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ وهو من تلاميذ أبي الفَرَج الأصبهاني مؤلف كتاب: الأغاني ...

ولا شك أن عَقلَهُ وممارستَه لآثار أبي علي المحسِّن التنوخي أمدَّاه برصيدٍ كبيرٍ من التعابير والاصطلاحات والمظاهر الحضارية التي كانت سائدة في ذلك العصر ... إضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً ...!

وبذلك ذلَّلَ كثيراً من الصعوبات التي قد اعترضت (Metz)ناشر الكتاب الأول سنة ١٩٠٢م. كما اعترضت د. زكي مبارك يوم كان مهتماً بدارسة الكتاب ونقد مضمونه لأنه من صميم موضوع أطروحته الجامعية في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك العهد ...!

ومن حقّنا في ميدان البحث والدرس أن نتساءل:

ـ كيف اهتدى هذا المحقّق العراقيّ: عبّود الشالجي. إلى أنَّ الكتاب الذي كان معروفاً باسم: (حكاية أبي القاسم البغدادي) تأليف أبي المطهر الأزدي الذي طُبع سنة ١٩٠٢م ... هو في حقيقة الأمر: «الرسالة البغدادية» التي ألفها أبو حيان التوحيدي ....؟ وذُكِرتْ في التراجم التي كتبها المؤرخون على أنها من مؤلفاته ...؟

وعند إمعان النظر والتأمل... وجدنا إجابة مُقنعةً...! فيما قدمه المحقق من تحليلات وذلك أن المحقِّق انطلق من نقطتيْن:

ـ الأولى: معرفته الواسعة بأبي حيان التوحيدي وكُتبه المتعددة وأسلوبه وتفكيره وتعبيره وسيئاته وحسناته ومركباته وأحقاده وعَدَاوَاته لرجال مشهورين في عصره ؛ مثل الصاحب بن عباد ، وابن العميد الأُب وابن العميد الابْن ؛ فقد عمد أبو حيان إلى أخبار معينة وقصص معروفة على قلمه، وأوردها في هذا الكتاب «الرسالة البغدادية» كما هي بنصها وفصها في كتبه الأخرى بنفس الصيغة ، ونفس الأسلوب ونفس التعليق ...!! بحيث لايبقى هناك مجال للشك أنَّ مؤلف كتابه «الرِّسَالة البغدادية» هو مؤلف كتاب (الإمتاع والمؤانسة) و (مثالب الوزيريْن) و (البصائر والذخائر) فالنص الواحد يرد بصيغة واحدة وأسلوب واحد في كل من الرسالة البغدادية ، وكُتب أبي حيان الأخرى!

وقد دعم المحقق ذلك بإشاراته المتعددة في الهوامش إلى مكان النصوص الواردة في الرسالة من كتب أبي حيان الأخرى ؛ وبذلك أبان على أن «اكتشافه» كان اكتشافاً مفيداً، نُقدره كل التقدير، لأنه موثَّق توثيقاً منهاجياً لا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غبار عليه ...!

ـ الثانية: أن المحقق كان يعلم أن مترجمي أبي حيان التوحيدي وفي طليعتهم ياقوت الحموي ؛ يذكرون أن أبا حيان التوحيدي ألف عدَّة كتب منها (الرسالة البغدادية) ، وبالاستقراء والتتبع لشكل كتاب: حكاية أبي القاسم البغدادي ومضمونه عَلِم أنها هي : (الرسالة البغدادية) ؛ وأن أبا حيان التوحيدي هو مؤلفها ؛ وإنما «تستَّر» خلف ذلك الاسم الغريب الخامل المجهول لحاجة في نفسه ؛ وقد أدرك أن مافيها من إمعان في وصف مظاهر الخلاعة والمجون ، ربما زاد في حُجَّة أعدائه وخصومه الذين وقفوا له بالمرصاد ، وألَّبوا عليه خاصة الناس وعامتهم ، ونسبوه إليه عِدَّة فِرق ، كما نَسَبَهُ بعضُهم إلى الزندقة، ! رغبةً في تهميشه ، وإخماله في حياته الطويلة...!

وهكذا وبفضل هذا الاكتشاف الموضوعي المدعوم بالأدلة القوية الناصعة تُصبح: حكاية أبي القاسم البغدادي ، الكتاب الذي حُقق وطُبع منذ أكثر من تسعين سنةً، هيَ: الرسالة البغدادية ، ويُصبح المؤلفُ المجهول الغامض أبو المطهَّر الأزدي ، هو المؤلفَ المفكرَ أبا حيان التوحيدي ...! الذي قيل عنه: إنه مات حيّاً وعاش ميّتاً، نظراً لما كتبه، وما فكر فيه، وما وضعه ، والفضل في ذلك نحمد له، ونعترف به للمحقق ، الذي بذل مجهوداً كبيراً في الإجادة والإفادة، ليستردَّ هذا الكتاب اسم مؤلفه الحقيقي ، واسمَه الحقيقي...

وإلى هنا تنتهي فكرةُ هذه الوقفة العلمية الموضوعية الموجزة ؛ وهي أن يسترجع هذا الكتابُ اسمه الحقيقي ويسترجع اسمَ مؤلفه الحقيقي وهو المفكر المؤلف الأديب: أبو حيان التوحيدي ...

ولم يكن من هدفها أن يتعمَّق كاتبُها في الحديث عن الطبعة الجديدة ، وما تشتمل عليه من إفادات وتخريجات متنوعة ، وما يمكن أن يكون فيها ـ في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نظرنا ـ من تجاوزات فإن لذلك موضوعاً آخر إن شاء الله ..

بعض المراجع التي استعنا بها:

ـ الإمتاع والمؤانسة. لأبي حيان التوحيدي. القاهرة١٩٥٣م.

ـ البصائر والذخائر. لأبي حيان التوحيدي تحقيق د. وداد القاضي بيروت ١٩٨٠.

ـ حكاية أبي القاسم البغدادي ط ١٩٠٢م.

ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة ... القاهرة ١٩٥٧م.

ـ الرسالة البغدادية. ط كولنيا ١٩٩٧م.

ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي. ط دار المأمون القاهرة ١٩٣٨م.

ـ البئر الفني لزكي مبارك: القاهرة ١٩٣٤م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net